

حقائق صادمة عن السلطة وسياسة الدولة

حب السلطة طبع بشري لا يقدح في العدالة

حين رشح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ستة الشورى وتنازل ثلاثة منهم بقي الأمر بين عبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رضي الله عنهم أجمعين، ثم تنازل عبد الرحمن شرط أن يختار بينهما. ولم يوافق عثمان وعلي رضي الله عنهم أن يتنازل أحدهما للأخر، ثم بعد استشارة عبد الرحمن للمهاجرين والأنصار استقر الرأي على عثمان.

ولعل رفض عثمان وعلي التنازل كان دليلاً على رغبة في القيادة، وهي رغبة لم تكن حباً في السلطة ذاتها بل اعتقاد كل منهما أنه الأفضل لقيادة المسلمين. ولم تقدح هذه الرغبة في عدالتهم ولا فضلهم، ولذلك لم يرد أي نقد لموقفهما هذا من قبل الصحابة ولا التابعين ولا أحد من علماء الإسلام.

هذا يعني أن حب القيادة أو النزعة للسلطة لا يتعارض مع العدالة والفضل، ولا يقدح في النية والأمانة لأنّه طبع بشري يتجلّ في المؤهلين للقيادة. أمّا حب السلطة ذاتها والاستمتاع بالأمر والنهي والتّحكم بالناس فهذا ليس أمراً محموداً وحاشا أن يكون مراد علي وعثمان رضي الله عنهم.

قال سفيان الثوري " ما رأيت زهداً في شيء أقل منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب فإن نوزع الرئاسة تحامي عليها وعادى "، وقال في رسالته إلى عباد بن عباد "إياك وحب الرئاسة، فإن الرجل تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة "، وقال يوسف بن أسباط: " الزهد في الرئاسة أشد من الزهد في الدنيا ".

إذا كان أفضل الأمة بعد أبي بكر وعمر راغبين في القيادة ولم يُبادرَا بالتنازل عنها، وإذا كان الصحابة والتابعون وعلماء الإسلام يعتبرون هذا الموقف طبيعياً لا يقدح في العدالة ولا الفضل فماذا يعني ذلك؟ يعني أن حب القيادة أو السلطة قد يرد من أفضل الناس.

ونموذج علي وعثمان يتكرر في الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم، ولهم ما لهم من الفضل والصحبة، فقد ظنّا أنّهما الأولى بالقيادة من يزيد. والفرق في حالة الحسين وابن الزبير عن علي وعثمان أنّهما استخدما القوة في السعي إلى السلطة ولم يقدح ذلك في فضلهم ولا عدالتهم. أمّا عمر بن عبد العزيز فقد صرّح بالنص أن له نفس تواقة وأنها تاقت لإمارة فنال إماره المدينة ثم للخلافة فنال الخلافة.

القسوة المشروعة فعلها الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون

كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحبُ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ لِكُنَّهُ كَذَلِكَ نَبِيُّ الْمُلْحَمَةِ وَشَدِيدُ عَلَى الْمُكَابِرِينَ وَالْمُجَرَّمِينَ. وَفِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ قَصْصَ كَثِيرَةٍ تَعْكِسُ هَذَا الْجَانِبُ وَتَدْلِي عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْقَسْوَةِ إِنْ دَعَتْ لَهَا الدَّوَاعِيُّ الشَّرِيعَةُ.

ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن تكبر أن يأكل بيمنه "لا استطعت" فشلت يمينه، وثبت أنه قال لابن صياد "إحساً فلن تundo قدرك"، وثبت أنه تبسم حين شتم أبو بكر عروة بن مسعود في غزوة الحديبية ولم يعترض على أبي بكر، وثبت أنه قطع أيدي وأرجل العرنين وسلم أعينهم قصاصاً. هذا فضلاً عن قتله صلى الله عليه وسلم كل البالغين منبني قريطة بعد خيانتهم واستراق نسائهم وأطفالهم.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم رفض الاسترحام الثاني لأبي عزة الجمحى بعد أن من عليه المرة الأولى وقال له "لا أدعك تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعت مهداً مرتين، لا يلدع المؤمن من جحر واحد مرتين" ثم أمر به فضربت عنقه. وأما الصحابة فقد أوصى أبو بكر رضي الله عنه قادته بالتنكيل بمن آذى المسلمين، وعاقب علي بن أبي طالب من ادعىألوهيته بالحرق.

القصوة غير المبررة مارسها من يتغنى الناس بأمجادهم

يتغنى الناس بأمجاد هارون الرشيد الذي كان يغزو عاماً ويحج عاماً مع أنه نفذ مذبح البرامكة دون قضاء مستقل وحبس عدداً من العلوين خوفاً من منافسته في السلطة دون قضاء مستقبل. ويتغنى الناس بأمجاد المعتصم في فتوحاته وانتصاره للمرأة المسلمة رغم ما فعل بأحمد بن حنبل.

ويتغنى الناس بأمجاد يوسف بن تاشفين، ويحق لهم، رغم المذابح وتدمير المدن، ويتجذرون بأمجاد قطر، ويحق لهم، رغم قتلهم أقطاهم وتشريده للمماليك البحريية ويتجذرون بأمجاد بيبرس، ويحق لهم، رغم قتلهم قطر وتساهله في الدماء.

وسبب هذا الثناء على هذه الشخصيات وغيرها هو أعمالهم العظيمة في تقوية شوكة المسلمين وتوحيد كلمتهم وحماية الأمة وتحكيم شرع الله وهيبة الدين وتعظيم العلماء وغير ذلك مما يستحقون الثناء عليه، ولا يعفيهم من مسؤولية الدماء التي سفكوها بغير حق.

قد يوجد متهمون بجرائم في فريق يقوده راشد

كان محمد بن أبي حذيفة الذي ولاد علي بن أبي طالب على مصر من حرض على عثمان رضي الله عنه، وكان مالك بن الأشتر من قيادات جيشه ثم ولاد كذلك رغم أنه من المتهمين بالمساهمة في قتل عثمان. وكان وجود أمثل هؤلاء وتقريرهم أحد الأسباب في فتنة الجمل وصفين حيث اعتبره المطالبون بدم عثمان إيواء لقتلة عثمان. هذا التقرير للمتهمين بأعمال تعتبر جريمة في عين آخرين لم يقل من فضل علي بن أبي طالب رضي عنه، وبقي من بين أفضل أربعة بعد الأنبياء.

توحيد الكلمة قد لا يتم إلا بدماء كثيرة

معركة صفين التي قتل فيهاآلاف المسلمين كانت محاولة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه لتوحيد كلمة المسلمين بالقوة بعد أن رفض معاوية رضي الله عنه البيعة. وحين سعى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

لجمع المسلمين تحت خلافته بعد موت يزيد أطلق يد أخيه مصعب في معارك ودماء كثيرة قتل في أحدها سبعة آلاف أسير كان قد أمنهم.

ولم يتمكن عبد الملك بن مروان من توحيد كلمة المسلمين إلا بعد معارك دموية هائلة مع جيوش عبد الله بن الزبير في العراق والجaz. ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من توحيد كلمة المسلمين (ما عدا الأندلس) إلا بعد إخماد عدد كبير من الثورات وقتل عميه عبد الله بن علي وأبي مسلم الخراساني وأخرين. ولم يتمكن يوسف بن تاشفين من توحيد بلاد المغرب وبناء جيش كبير ينفذ به المسلمين في الأندلس إلا بعد معارك دموية ودماء ودمار. والنهاج في توحيد كلمة المسلمين بعد هذه الدماء لا يعني إقرار هذا الفعل لكن الشعوب تتغير وتتمر بأحوال تقضي سنة الله أن لا يمكن توحيدها إلا بالدم.

أما عند غير المسلمين فلم تجتمع بريطانيا في دولة واحدة ولم تتمكن أمريكا من القضاء على فتنة الانفصال ولم تتشكل روسيا بمساحتها الهائلة ولم تظهر ألمانيا للوجود كدولة إلا بسلسلة من الحروب والدماء وسنين طويلة من الصراع.

قد يتقاول المتحابون على السلطة

قاد عبد الملك بن مروان المعركة التي هزم فيها مصعب بن الزبير بنفسه وحين انتهت المعركة قال "كان من أحب الناس إلي، ولكن هذا الملك عقيم". وقاتل أبو جعفر المنصور عمّه عبد الله بن علي وأسره ثم قتله مع أنه كان من أهم المساهمين في تأسيس الدولة العباسية.

أما تنازع الإخوان وبني العum على السلطة بعد وفاة والدهم فتكاد تكون في كل السّلالات، حيث تنازع بنو أمية على السلطة بعد وفاة هشام بن عبد الملك، وتنازع الأمين والمأمون بعد وفاة الرشيد، وتنازع الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين، وتنازع أبناء محمد الفاتح بعد وفاة والدهم، وتنازع أبناء شاه جيهران في الهند بعد وفاة والدهم.

وعند غير المسلمين تنازع ابني وليام الأول في إنجلترا على السلطة، ثم تنازع سلاطتان من جد واحد بعد ذلك في حرب الورديتين التي دامت ثلاثين عاماً، وتنازع أبناء قسطنطين الأكبر على حكم الامبراطورية الرومانية بعد وفاته، وتنازع أبناء كلوفيوس الأول على حكم فرنسا، وتنازع أبناء لي يوان في الامبراطورية الصينية على السلطة. وهذه ليست إلا نماذج قليلة من الصراعات بين الأبناء والمحابين ورفاق النضال السابقين.

من الأكثر حظا بالنصر القائد المتساهل في سفك الدماء أم القائد الورع؟

القائد الورع لا يقتل ولا يقاتل إلا من اكتملت شروط سفك دمه وربما ترك من يستحق ذلك تورعاً، ومع أن هذا النهج هو المطلوب شرعاً لكن حين يفشوا النفاق وتنتشر الأنانية ويتطبع الناس على الارتزاق ينجو كثير من المتربيين المخربين ومثيري الفتنة بسبب هذا الورع.

أما القائد المتساهم في سفك الدم فإنه يُغلب سوء الظن ولا يتورع أن يكون بين ضحاياه من ليس مستحقةً للقتل من أجل أن يضمن أن السيف قد أخذ كل من يشكل خطراً على السلطة وانقياد الناس. لكن الدموية المحسنة لا تفع دون دهاء ومراعاة التوازنات الاجتماعية واستخدام قوى أخرى مثل المال والعلاقات.

وقد يكون عند القائد الورع من الدهاء والموهبة قيادية ما يعوّض عن المخاطرة بترك بعض من يشكل خطراً على سلطته، ومن جهة أخرى قد يفتقر القائد الدموي إلى الدهاء فلا ينفعه سفك الدم ولا التساهل في التخلص من المجرمين، بل قد يستعدي الناس ويقتل المؤيدين النافعين له بسبب هذا التساهل. ولكن إذا اجتمع الدهاء والموهبة القيادية مع الجرأة على العنف فربما تكون فرصة النجاح أعلى ولهذا السبب كسب عبد الملك بن مروان وأبو جعفر المنصور.

وسفك الدم من أجل السلطة لا شك أنه جريمة غير مبررة لكنه لا يعني الخيانة ولا التفريط بقوة المسلمين فقد كان للمسلمين شأن عظيم في خلافةبني أمية والفترات الأولى من حكمبني العباس ورفع راية الجهاد وفتحت الفتوح وحكم بالشرع وكان الدين مهيبا. وخلال حكم المماليك تم تطهير بلاد المسلمين من المغول والصلبيين وخلال حكم العثمانيين وصلت الفتوحات إلى النمسا وتمت حماية المشرق العربي من الصوفيين. أما إذا صاحب هذا النهج الدموي عمالة وتبعية وتحويل بلاد المسلمين إلى دولة وظيفية في خدمة الأعداء فهي جريمة مركبة جمعت بين سفك الدم والخيانة.